مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٤) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (4) 2026

الضوء والظلمة في لوحات الصراع الحربي في أشعار أصحاب المعلّقات العشر

د.سمران متوّج*

بيان متوّج**

(تاريخ الإيداع ١/٨ /٢٠٢٦. قُبِل للنشر في ٢/٩ /٢٠٢٦)

□ ملخّص □

تأتي هذه الدراسة لتبحث في المعاني، والدّلالات التي تَبْطن عُنصُرَي الضّوء والظلمة في لوحات الصراع الحربي، لإظهار العمق الوجداني في نفوس الشعراء أصحاب المعلّقات العشر الجاهليين وهم يتأمّلون مجريات الأحداث القتاليّة، والنزاع الذي تفرضه الشروط البيئيّة، والاجتماعيّة على حياتهم من قتالٍ، ومواجهةٍ، وغزوٍ. وهذا حتّم عليهم توظيف الشعر ليكون سلاحاً ماضياً في الصراع الحربي، فجاءت وظائفه الفنّيّة محمّلة بمواقف تتّسق مع صور العنف، وصفات الشجاعة، والإقدام المحفزة إلى التحميس، مناهضة الحرب، وما تؤول إليه من فتكٍ، ودمارٍ في غير نصٍّ شعريٍّ، وإظهار التحدّي، الثبات في المعركة، وردع الأعداء، والتفاخر. استخدموا فيها وسائل فنّيّةً للتعبير عن رؤيتهم، ومواقفهم من الصراع الحربي كان من أبرزها الضوء والظلمة للإفصاح عن هذه المواقف، وتعميق رؤاهم حَيال الصراع والحرب. فرسموا كثيراً من صور الاقتتال، وأسندوا إلى الضوء والظلمة دوراً وظيفيّاً فاعلاً في كشف الأفكار الإنسانيّة، ومواقفهم المختلفة من الحرب.

الكلمات المفتاحيّة: الضّوء، الظّلمة، الصراع، السلاح، النار.

*أستاذ مساعد .كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة اللاذقية– سوريا

** طالب دراسات عليا – ماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة اللاذقية– سوريا

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٤) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (4) 2026

Light and Darkness in the Depictions of Martial Conflict in the Poetry of the Poets of the Ten Mu‘allaqat

Dr. Samran Mtawaj*
Bayan Mtawaj**

(Received 8/1 /2026. 9 /2/2026)

□ ABSTRACT□

This study examines the underlying meanings and symbolic connotations of light and darkness as they appear in depictions of martial conflict, with the aim of revealing the poets’ profound emotional depth in ten pre-Islamic odes. It explores how these poets contemplated the dynamics of combat and how conflict—shaped by environmental and social conditions—permeated their lives through fighting, confrontation, and raiding. Such circumstances compelled them to deploy poetry as a keen-edged weapon within the theatre of war. Consequently, poetry assumed aesthetic functions laden with stances that resonate with images of violence, virtues of courage and audacity that incite martial fervor, as well as, in other poetic contexts, opposition to war and its inevitable outcomes of devastation and bloodshed. The poems also articulate defiance, steadfastness in battle, deterrence of enemies, and self-glorification. To express their visions and positions regarding armed conflict, the poets employed a range of artistic devices, most notably the motifs of light and darkness. Through these motifs, they articulated their perspectives and deepened their reflections on conflict and war, crafting vivid scenes of combat and assigning light and darkness an active functional role in unveiling human ideas and the poets’ diverse attitudes toward warfare.

Keywords: Light; Darkness; Conflict; Weaponry; Fire.

*Assistant Professor.Faculty of Humanities. Department of Arabic Language. University of Latakia. Syria
** Graduate Student (M.A) . Department of Arabic Language. .Faculty of Arts of Humanities . University of Latakia. Syria

مقدمة:

يؤدّي الضوء والظلمة دوراً حيويّاً في لوحات الصراع الحربي في أشعار أصحاب المعلّقات العشر؛ إذ إنّ الصراع، والاقتتال كانا جزءاً من الحياة العربيّة، ممّا حفز الشعراء إلى رسم صورٍ فنّيّةٍ للمعارك شكّل عنصرا الضوء والظلمة خطوطاً بارزةً في كثيرٍ منها.

صوّر بعضهم الجيوش بصور مظلمةٍ، مشبّهين إيّاها باللّيل وما يحمله من دلالات الترهيب، وإشاراتٍ إلى القوّة، والكثرة، والعتاد. فضلاً عن وصف الإغارة في فترة الصباح ليحمل ضياؤه في هذه الصور ظلمة الموت للأعداء، وأفكار القتل ، والمباغتة. كما يتجلّى الضوء بصور نيران الحرب بما فيها من قتل، وإهلاك، ووهج سيوف باترة، والتماع رماح، وخوذ، ودروع؛ إذ اختزن الضياء فيها الإفناء، والإماتة للأعداء، والانتصار لأصحابها.

ممّا يجعل للضوء، والظلمة أدواراً وظيفيّةً، وفاعليّةً في تعميق الصراع، وكشف المعاني التي يرنو الشعراء إلى إظهارها في خضمّه.

الدراسات السابقة :

تحدثت هذه الدراسات عن جوانب تلبي الأهداف التي طمح إليها مؤلفوها، وسيدرس المقال _هنا_ الضوء والظلمة من منظور أصحاب المعلّقات العشر وفق السياقات النصية الشعرية، ودلالاتها العميقة.

وسنقوم بترتيب الدراسات ترتيباً زمنياً من الأقدم إلى الأحدث.

١ – شعر الحرب في العصر الجاهلي، د.علي الجندي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت– لبنان، ط٣، ١٩٦٦

٢ – الضوء واللون، بحث علمي وجمالي، إعداد فارس متري ظاهر، دار القلم ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٩ م

٣ – البطولة في الشعر العربي ، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤

٤ – صورة السلاح في ديوان أوس بن حجر،أ د مصطفى حداد، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الخامس عشر، خريف٢٠١٣م

٥– ثنائية الضوء والعتمة – دراسة تحليلية لأدوار الإضاءة في شعر السياب ، د علي عز الدين الخطيب ، جامعة واسط ، كلية التربية – العراق – ٢٠١٠.

٦–النور والظلام في شعر البحتري (دراسة) د نوزاد شكر الميراني، دار الزمان، دمشق– سوريا، ط١ ،٢٠١٠

٧– ثنائية النور والظلام في ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري ، محمد رجب عبد الحليم المنشاوي ، حوليات كلية آداب جامعة عين شمس ، مصر ، عدد ٢ – (مارس)٢٠٢١

أهمية البحث، وأهدافه:

تأتي أهمّية هذه الدّراسة من جدّتها، إذ لم يسبق أن درس البحث العلميّ الضّوء والظّلمة بوصفهما عنصرين فنيّين يحضران في لوحات الصراع الحربي في الشّعر الجاهلي، ويكونان متلازمين في الأغلب الأعمّ من حضورهما على الرّغم من وجود بعض الدّراسات التي درست الضّوء، أو الظّلمة في سياقات بحوث ودراسات قامت على أهدافٍ وأسبابٍ لم تتقصّد دراسة هذين العنصرين لذاتهما، وبصفة خاصة في مشاهد القتال.

وتكمن أهميّة البحث في تناول عنصري الضّوء، والظّلمة في تفاعلهما ضمن السّياق الشّعري مع عناصر النّصّ، ودلالاته لإظهار المرامي الوجدانيّة، والفكريّة في مواقف الصراع، والنزاع الحربيّن.

ويهدف إلى الإسهام _قدر الإمكان _ بقراءة جديدة للنّصوص الشعريّة المنتخبة للدّراسة من أجل تقديم إضافة معرفيّة متواضعة تسهم في الكشف عن القيم المعرفيّة ، والوجدانيّة في أشعار أصحاب المعلّقات العشر.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفيّ القائم على وصف الظاهرة المدروسة في زمان، ومكان محدّدين؛ ومجاله _هنا_ أشعار الشعراء أصحاب المعلّقات العشر الجاهليّين، وسينطلق المنهج من الدّاخل النّصّي لتأمين قراءة مستندة إلى مكوّنات النصّ من ألفاظ، وتراكيب، وصور تضمن رؤية للضّوء، والظّلمة، وتكشف عن الدّلالات، والأفكار والمعاني المُتَضَمَّنة فيها .

مكان إجراء البحث، وفترة تنفيذه:

جرى البحث في محافظة اللاذقية، بفترة زمنيّة تقدر بسنة، ونصف.

الضوء والظلمة في صور الموقف من الحرب:

يحضر الضوء والظلمة في مشاهد الحرب معلياً دلالات التنفير منها لما فيها من قتل وإماتة ، فضلاً عن اختزانه دلالة القوّة، وشدّة البأس للمنتصرين، والانكسار والهلاك للخاسرين.

يكشف الضوء في نصّ شعريّ لامرئ القيس مدى شناعة الحرب، وقبحها مصوّراً إيّاها في أوجها فتاةً حسناء تغري الجهّال، وامرأةً عجوزاً قبيحةً في نهايتها، يقول:([1])

الحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً تَسْعَى بِزِيْنَتِها لِكُلِّ جَهُولِ

حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَتْ وَشَبَّ ضِرَامُها عَادَتْ عَجُوزَاً غَيرِ ذَاتِ خَلِيلِ

شَمْطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ والتَّقْبِيلِ

يبتدئ الشاعر نصّه بلفظ (الحَربُ) منبّهاً إلى خطورة هذه الحرب التي تسفر عن الفناء مشخّصاً إيّاها بصورة فنّيّة (فَتِيَّةً تَسْعَى بِزِيْنَتِها)، وهي صورة فتاةٍ شابّةٍ، فاتنةٍ، جذّابةٍ تغري الجُهّال (لِكُلِّ جَهُولِ)، تعكس الصورة مدى قدرة الحرب في بدايتها على اجتذاب المحاربين لخوضها بصورةٍ لا تَنأى عن الضياء؛ وهي الزينة التي تبرق بأضواء انعكاساتها فتغري الناظرين، وتبقى كذلك إلى أن تشتدّ، ويحتدم القتال (حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَتْ وَشَبَّ ضِرَامُها)؛ إذ يجسّد الشاعر قوّة الصراع بصورة قوامها النيران المستعرة مستخدماً ثلاثة ألفاظ ضوئيّة (اسْتَعَرَتْ، شَبَّ، ضِرَامُها) تعمّق مدى خطورة الحرب، فتغدو ناراً متّقدة تحرق كل من فيها ليكونوا حطباً يزيدها اشتعالاً باحتراقه، وفنائه يبدو الضوء في هذه الصورة حاملاً الموت، والشر، والإحراق للمقاتلين، فهي صورة ضوئيّةٌ تحمل ظلمة الموت، والإفناء، والقتل، نلحظ التحول الدلالي لصورة المرأة التي شَخّصَ الحرب فيها، فقد انتقلت من دلالة الجمال، والحيويّة إلى القبح (شَمْطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا، مَكْرُوهَةً) أي ثمّة مفارقة، وتضاد بين بداية الحرب، ونهايتها؛ لأنها بدت في البداية "فتاة شابة ذات فتنة تخدع

([1]) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر، ط٣، ١٩٦٩ م . ص٣٥٣

الجهّال من الرجال لتتكشف بعد ذلك على حقيقتها عجوزاً شمطاء قبيحة المظهر"([٢]) وهكذا الحرب في نقلها الخدوعين بإغرائها، وفتنتها من ضياء الحياة إلى ظلمة الموت، فكما يحوّل ضياء النيران ولهيبها الحطب إلى فحم، ورماد كذلك الحرب في فعلها بالمتحاربين، ممّا يجعل التعالق قائماً بين الضوء والظلمة في النصّ؛ فضوء نيران الحرب ظلمة، وموت.

يتضمن الضوء في مشهدٍ شعريٍّ لعمرو بن كلثوم معنى بداية نشوء الحرب، كما يظهر مدى استعداد قوم الشاعر إلى خوضها، وإلى إعانة الحلفاء، يقول:([٣])

وَنُوجَدُ نَحنُ أَمنَعَهُم ذِمَارَاً وَأَوفَاهُم إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا
وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ فِي خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا

يعبر الشاعر عن قوّة قومه، وشدّة بأسهم يعمّق هذه الدلالة تكرار صيغة التفضيل في قوله: (أمنعهم، أوفاهم) مصوراً بطولاتهم الحربيّة لافتاً الأنباه إلى عظمهم، ومنعتهم، ووفائهم وتحفّزهم للقتال، ونصرة الحلفاء في الحرب، رامزاً إلى استهلال الحرب بصورةٍ ضوئيّةٍ (أُوقِدَ فِي خَزَازَى)، وهي صورة تقوم على الفعل الماض الموحي بتحقّق فعل اتقاد نيران الحرب (أُوقِدَ) ، وعلى اسم المكان (خَزَازَى)الذي يضفي سمةً واقعيّةً على المشهد؛ إذ يحمل أفكاراً عديدة منها التجهّز اللّيلي للحرب، واستقدام الحلفاء "كان العرب إذا أرادوا حرباً أوقدوا الضوء هنا وتوقّعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً ليبلغ الخبر أصحابهم"([٤])ممّا يكثّف دلالة حشد المقاتلين، وَعِظَم التجهّز لخوض الحرب، تتعمّق الدلالة أكثر بالتكرار الدال على مدى التأهّب (رَفَدْنَا، رِفْدِ الرَّافِدِينَا) كما يختزن الضوء معاني الموت، والقتل، والإهلاك، والحرق لما يحمله إيقاد النار المعلن الحرب من أفكار الحرق؛ إذ يشي بالتأثير الذي ستحدثه الحرب التي أعلن عنها ضوء النار، إذ تعد "المعركة الميدان الفسيح الذي يستمدّ الشاعر منه معانيه الحربيّة" ([٥])فغدا الضوء في المشهد مبرزاً التحفّز للقتال، متعالقاً مع الظلمة المُضَمَّنَة في المشهد في تأدية تلك المعاني المظهرة قوّة قوم الشاعر، وقدراتهم القتالية.

يعلن الضوء في نصّ زهير بن أبي سلمى الشعريّ الآتي موقفاً منفّراً من الحرب، يوظّفه لتقديم صورةٍ بشعةٍ، مخيفةٍ عنها، يقول:([٦])

وَمَا الحَربُ إِلَّا مَا عَلِمتُم وَذُقتُم وَمَا هُوَ عَنهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبعَثُوهَا تَبعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضرَ إِذَا ضَرَّيتُمُوهَا فَتَضرَمِ
فَتَعرُكُكُمُ عَركَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلقَح كِشَافَاً ثُمَّ تَحمِل فَتُتئِمِ

صورة السلاح في ديوان أوس بن حجر، أ.د.مصطفى حداد، مجلة دراسات في اللغة العربية ، وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الخامس عشر، ([2])خريف٢٠١٣م. ص٢٢

ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.ص٨٢، وينظر الحارث بن حلزة ص٣٥ الذمار: ما يحق عليه أن يحميه، خزازى: جبل.

([3])

([4])جمالية النار بين البنى المثيولوجيّة والقيم الإنسانية في الشعر العربي القديم، أحمد الخليل،دت، دط ص١٢٦

([5]) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د يحيى الجبوري،دتح، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط٥، ١٩٨٦، ص٢٩٤ – ٢٩٥

ديوانه، تحقيق: دفخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة،لبنان ،ط٣ ، ١٩٨٠ م ص ١٨–١٩ ذقتم: جربتم، وما هو عنها: كناية عن

([6]) العلم المرجم: المظنون، فتعرككم: تطحنكم وتهلككم، الثفال: جلدة تكون تحت الرحى تأتم: مرأة تأتي بتوأمين

فَتُنتَجْ لَكُم غِلمَانَ أَشأَمَ كُلُّهُم كَأَحمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ

يبدأ الشاعر نصّه بالحديث عن الحرب (وَمَا الحَربُ) منبهاً إلى أفكار الموت، والفناء التي تلزم عنها، يستخدم أسلوب النفي والاستثناء المخصّص الحرب بهذه الدلالات (وَمَا الحَربُ إِلَّا مَا عَلِمتُم وَذُقتُم) مصوّراً إيّاها بشيء يذاق (وَذُقتُم) وهي صورةٌ ذوقيّة تُظهر مدى كرهها، وبغضها، وكأنّها طعم مكروه؛ فهي تتسبّب بقتل الناس، وانتقالهم من ضياء الحياة إلى ظلمة القبر أوحى بذلك اللفظ مرجم " الرجم: القتل، الرجم: القبر "([٧])؛ إذ يختزن اللّفظ دِلالة الموت، والقبر، وتبدو الحرب سريعة النشوء، والظهور، يكثّف الشاعر هذه الأفكار بصورة ضوئيّة في قوله: (وَتَضرَ إِذَا ضَرَّيتُمُوهَا فَتَضرَمِ) يكتنه الضوء في هذه الصورة دلالات القتل، والإفناء، والحرق، وسرعة الانتشار، فكما تشبّ النار وتنتشر محرقةً كلّ ما تصيبه كذلك الحرب، وهذا ما يريد زهير البوح به ويختزن أسلوب الشرط _هنا_ معنى إتاحة الفرصة للتّفكير، والتأنّي قبل الوقوع في شرّ الحرب؛ إذ يعمّق استخدام النار شعور الإخافة، والترهيب، ولكن يمكن النجاة من هذا الويل المحرق في حال امتنع الإنسان عن الانجرار إلى الحرب، نلحظ إلحاح الشاعر على الدلالة الضوئية الإفنائيّة المحرقة بالتكرار في الكلمات (تَضرَ، ضَرَّيتُمُوهَا، تَضرَمِ) فهي تعود إلى الجذر اللّغوي (ضَرَمَ) الحامل الحرق، والنار، والاشتعال، والموت، ويمكن التنبّه إلى ما تنتجه الصورة الفنّيّة للضوء الناري في وصف الحرب من الإحساس بألم الحرق، ممّا يجعلها أكثر إفزاعاً، وإخافةً، وإيلاماً، وتنفيراً، وهذا ما تصبو إليه الذات الشاعرة من استخدام هذه الصورة الضوئيّة، ممّا يجعل الضوء والظلمة في النصّ متناغمين؛ فهما يتشاركان في حمل دلالات الشر، والإفناء، ويستخدم الشاعر صورة فنّيّة أخرى تكثّف أفكار القتل؛ وهي صورة الرحى(فَتَعرُكْكُمُ عَركَ الرَّحَى)؛ إذ شبّه الحرب بالرحى فـ"الحرب طاحونة دم كبرى تطحن الرجال،

والزرع،والضرع، والآمال"([٨]) وهي صورة فنّيّة قائمة على الصوت، والحركة، والفاعليّة يعمّقها التكرار (تَعرُكْكُمُ، عَركَ) الذي يجسّد أهوالها، وهي صورة تكافئ الصورة الضوئيّة النّاريّة في حمل القتل، والإهلاك للمتنازعين، وثمّة تحوّل دلاليّ في الرحى؛ فالرحى تنتج الطحين الذي يشكّل الغذاء المسهم في استمرار الحياة، أمّا الحرب فتفني الحياة منتجةً الموت (فَتُنتَجْ لَكُم غِلمَانَ أَشأَمَ)؛ فمن أهوال هذه الحرب أنّها تنتج ولادة مشؤومةً، مملوءةً بالشرّ، والأذى، والحقد، ممّا يجعل الضياء ضياء الموت، والشؤم، والإهلاك.

يُوَظِّفُ الضوء في نصّ لزهير بن أبي سلمى للكشف عن الحقيقة المخيفة لما تنتجه الحرب من ويلاتٍ، وهلاكٍ، وفاجعةٍ، مبيّناً شجاعة أبناء قومه، وبسالتهم إذا أضرمت نيرانها، فيكونوا ممّن يشعلونها بإقدامٍ، وبطولةٍ، يقول:([٩])

إِذَا لَقِحَت حَربٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ضَروسٌ تُهِرُّ النَّاسَ أَنيَابُهَا عُصلُ

قُضَاعِيَّةٌ أَو أُختُهَا مُضَرِيَّةٌ يُحَرَّقُ فِي حَافاتِها الحَطَبُ الجَزلُ

([7])تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، د.محمد تامر – أنس الشافي ، دار الحديث– القاهرة، ٢٠٠٩، د.ط ، ص٤٣١

([8])الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، د.عبد الإله الصائغ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧، ص١٠٧

ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٣٦ –٣٧ لقحت حرب: حملت، اشتدت وقويت، العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة، الضروس: العضوض، تهر تكره العصل: الكالحة المعوجة قضاعية: تنسب الحرب إلى قضاعة، الجزل: ما غلظ من الحطب، إزاءها: الذين يقومون)بها،

([9] المشرفية: السيوف، القنا: الرماح، النكل: الجبناء

تَجِدْهُم عَلى ما خَيَّلَت هُم إِزَاءَها وَإِن أَفسَدَ المَالَ الجَمَاعَاتُ وَالأَزَلُ
يَحُشُّونَهَا بِالمَشرَفِيَّةِ وَالقَنا وَفِتيَانِ صِدقٍ لَا ضِعافٌ وَلا نُكلُ

تتراءى إلى المخيلة منذ مطلع المشهد صورة حربٍ شديدة الاحتدام، والفتك بالمتحاربين، ذات مظهرٍ مفزعٍ قبيحٍ ينفّر الناس لبشاعتها، ومدى أذاها، وشرورها المستمرّة، التي يوحي المضارع (تُهِرُّ النَّاسَ) بمدى استمرارها، جسّدها الشاعر بحيوان مفترسٍ ذي أنيابٍ حادّةٍ (أَنيَابُهَا عُصلُ) مبدياً في هذه الصورة الفنّيّة هيئتها المخيفة " الحيوان يكشّر عن أنيابه حين يشتدّ غضبه، ويقصد إهلاك فريسته، وهكذا الحرب"([١٠]) فهي تتسبّب بالإهلاك، والإفناء ، يكثّف الشاعر دلالات الإهلاك بصورةٍ ضوئيّةٍ قوامها النار المضرمة (يُحَرَّقُ فِي حَافاتِها الحَطَبُ الجَزلُ)؛ إذ يكشف ضوء النار هول الحرب، وضخامتها، وكذلك ذكر الحطب الجزل، الضخم الدّال على تلك المعاني، فضلاً عن حشد الحلفاء للاستعانة بهم "فكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخّنوا بالنهار، وأوقدوا باللّيل ليُعلِموا العشائر، والأحلاف، ويجمعوهم "([١١]) وهذا يدلّ على الكمّ الكبير للمقاتلين المستَقدَمين للمؤازرة. يظهر قوم الشاعر في تلك الحرب على أهبة التحفّز إلى القتال، والنصر، وكأنّ سيوفهم، ونبالهم روافدٌ لنارها في إماتة الأعداء (يَحُشُّونَهَا بِالمَشرَفِيَّةِ وَالقَنا) ممّا يوحي باستبسالهم فيها "الحش: الولد الهالك في بطن أمه... المحش: حديدة تحرّك بها النار، والمحش: الرجل الشجاع يوقد نار الحرب، حَشحَشَتِ النارُ الحطبَ: أحرقته"([١٢]) ممّا يعني اكتناه الضوء في المشهد أفكار الانتصار لقوم الشاعر، وهو يتعالق مع الظلمة المضمّنة في المشهد المقدّرة بالموت، والفناء، والحرق للأعداء في كشف تفوّق قومه الذي يقوّيه تكرار النفي (لَا ضِعافٌ وَلا نُكلُ) المظهر شجاعتهم، وبسالتهم، وبطولاتهم، وتحفّزهم إلى القتال.

الضوء والظلمة في صور السلاح:

يمكن لحظ فاعلية للضوء والظلمة في مشاهد الأسلحة التي شبهت بصور مضيئة ومظلمة من مثل تشبيه الجيوش بالليل المظلم الحامل الإخافة، ووصف الغزو في ضياء الصباح الذي يغدو ظلمة موت للعدو، وتشبيه الأسلحة بصور الضوء من مثل النار، والبرق، والشهب؛ إذ حمل الضوء والظلمة في المشاهد أفكار القوة للمنتصر، والهزيمة والردع للخاسر.

تمور الظلمة بمعاني الإخافة، والترهيب، والغلبة، والقوّة عندما ترتبط بالتصوير الشعري للجيوش، وحجمها الضخم، المهول، كثير العتاد، والعدد، فضلاً عن تأدية الضياء دوراً حيويّاً في هذه المشاهد.

تستوعب الظلمة بما فيها من قتامة مُكثَّفة صورة جيش قوم عبيد بن الأبرص، فيبدو جحفلاً مخيفاً يأخذ سوادَه القاتم من كثرة أعداد أبطاله، وتلاحمهم، وتأهّبم، توفّر له هذه الظلمة القدرة على إخافة أعدائه، وتشير إلى تحفّز متحمّس لقتال الأعداء، وبلوغ النصر عليهم، يقول:([١٣])

([10])شعر الحرب في العصر الجاهلي، د.علي الجندي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت– لبنان، ط٣،١٩٦٦– ص ٧٦

([11]) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ،مكتبة نعضة مصر ومطبعتها، ط٢، ١٩٥٢، ص ١٨١

([12])معجم متن اللّغة، الشّيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت–لبنان، ١٩٥٩م ، مجلد٢، ص٩٥ – ٩٦

ديوان عبيد بن الأبرص، تشارلز لايل، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩١٣ م ص ٤٦–٤٧ وينظر ديوان الأعشى، د.محمد حسين، صلا كفاء له: لا نظير له الأنأى: الأبعد، الجحفل: الجيش البهيم: الشديد السواد، المنتجع: الطالب، اللهام: الذي يلتهم كل شيء، تعاطين غسانا: أي خضن

أَو لَأَتَوكَ بِجَمعٍ لَا كِفَاءَ لَهُ قَومٍ هُمُ القَومُ في الأَنأَى وَفِي البُعُدِ
بِجَحفَلٍ كَبَهِيمِ اللَّيلِ مُنتَجِعٍ أَرضَ العَدُوِّ لُهَامٍ وافِرِ العَدَدِ
حَتَّى تَعاطَينَ غَسَّانَاً فَحَرَبَهُم يَومَ المُرارِ وَلَم يَلوُوا عَلى أَحَدِ
لَمَّا رَأَوكَ وَبُلجُ البِيضِ وَسطَهُمُ وَكُلُّ مُطَّرِدِ الأُنبُوبِ كَالمَسَدِ
غَوَّت بَنو أَسَدٍ غَسَّانَ أَمَرَهُمُ وَقَلَّ مَا وَقَفَت غَسَّانُ لِلرَّشَدِ

تتجلّى معاني الضخامة، والتكدّس، وهول العدد والعتاد الحربي منذ مطلع النصّ؛ إذ يصف الشاعر الجيش بكلمة (جمع) التي تعمّق دلالات الكثرة، والتجمّع فضلاً عن التكرار الذي يعزّز دلالات هول العدد (قوم، قوم) ، تتكثّف معاني كثرة عدد الجيش أكثر بالصورة الفنّيّة التي تزخر بالظلمة في وصف الجيش (بِجَحفَلٍ كَبَهِيمِ اللَّيلِ)؛ ممّا يحمّل الظلمة _هنا_ أفكار الضخامة، والقوّة، والخوف ؛ إذ يرسم الشاعر صورة جيش هائل القدرة لعدّته، وشجاعته ليغدو في ضخامته، ومدى امتداده ليلاً مظلماً يغطّي أرض العدوّ، كما تحمل الصورة دلالات ترهيب الخصوم يعمّق الشاعر دلالات قوّة الجيش أكثر بصورة فنّيّة أخرى في قوله: (لُهَامٍ) فيغدو في انتصاره على الأعداء، والقضاء عليهم من مثل التهام الطعام، وفي هذا تعزيز لدلالة الانتصار، والقوّة، ويعرض عبيد جزءاً من أمجاد قومه، متّكئاً على صورةٍ ضوئيّةٍ يجسّد من خلالها انتصارات قومه، تؤدّيها صورة السيوف الحادّة الباترة، استوعبتها عناصر الضياء، والإشراق في دلالةٍ واضحةٍ على مضائها، وقدرتها على القطع، والقتل (وَبُلجُ البِيضِ وَسطَهُمُ) ، ممّا يشير إلى تفوّق قومه، ومجدهم التليد، عبّرت عنه صورة السيوف المضيئة، فثمّة تعالق بين الضوء والظلمة في

المشهد، لكون ظلمة مظهر الجيش وسواده امتداداً لضياء السيوف في اختران القوة، وأفكار الغلبة.

استند نصّ عبيد إلى عنصريّ الضوء، والظلمة لإبداء مقولاتٍ، وأفكار عميقةٍ كانا في توظيفهما

الفنّيّ نوعاً من ردع الأعداء، وإثبات قوة أبناء قومه، فكانا سلاحين فتّاكين في المستوى الفنّيّ لأداء رؤية عبيد لوظيفة الفنّ الشعريّ في التأثير في مجريات أحداث الصراع الإنسانيّ من خلال صور الكتائب، والسيوف التي عمّقت إقدام أبناء قومه، وبسالتهم، وبطولتهم ..

يتفاعل الضوء والظلمة في إبداء قوة جيش قبيلة النابغة ، بغية ترهيب الخصم، وإنذاره، وجعله يعدل عمّا يقوم به من أفعال غير محمودة؛ إذ يسلطان الضياء على جيش عظيم البأس، مهول العدد يبدو ليلاً مظلماً، يقول:([14])

حربها، يوم المرار: يوم النصر على بني غسان، المرار مكان يلووا على أحد: أي فروا ولم يلتفتوا على أحد، البلج : جمع أبلج، وهو المشرق

([13]) الوضاء، البيض: السيوف، مطرد الأنبوب: يريد الرمح الطويل المقوم، المسد: الحبل من الليف، غوت : أضلت٣٤٧

ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٠ ص٨٢– ٨٤ وينظر ديوان الأعشى، د.محمد حسين،ص٣٤٧

* وردت لفظة إظلام مضمومةً في الديوان

يوم كأيام: أخشى أن يحملكم بغضُكم لهم على أن تبعثوا بيننا وبينكم حرباً شديدة يكون لكم منها يوم طويل كأيام في الطول، تبدو كواكبه: ضَرَبَ هذا مَثَلاً لشدَّة اليوم وهوله، لا النور نور: أي ليس النور في هذا اليوم كالنور المعهود في سائر الأيام، وليس إظلامه إظلاماً في الحقيقة ؛ لأنه ليس بظلام ليل، تزجروا مكفهراً، المكفهر: الجيش العظيم، وكل متراكب مكفهر، لا كفاء له: أي ليس عندكم من القوة ما تكافئونه به وتماثلونه، كالليل يخلط أصراماً بأصرام: يعني شدة سواد الليل وتراكب ظلمته، وشبه الجيش به ؛ لأن الكتيبة توصف بالسواد لكثرتها واسوداد سلاحها . والأصرام : القطع والجماعات، مستحقبي حُلَقِ الماذي: حامليه في حقائبهم، والماذى : الدروع اللينة السهلة الرقيقة ، شم العرانين:

إِنّي لَأَخشَى عَلَيكُم أَن يَكونَ لكُم مِنْ أَجلِ بَغضَائِكُم يَومٌ كَأَيَّامِ
تَبدُو كَوَاكِبُه والشَّمسُ طَالِعَةٌ لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الإِظلَامُ إِظلَامُ*
أو تَزجُرُوا مَكفَهِرَّاً لَا كِفَاء لَهُ كَاللَّيلِ يَخلِطُ أَصرَامَاً بِأَصرَامِ
مُستَحقِبِي حَلَقِ المَاذِيِّ يَقدُمُهُم شُمُّ العَرَانِينِ ضَرَّابُونَ لِلهَامِ
لَهُم لِوَاءٌ بِكَفَّي مَاجِدٍ بَطَلٍ لَا يَقطَعُ الخَرقَ إِلَّا طَرفُهُ سَامِ
يَهدِي كَتَائِبَ خُضرَاً لَيسَ يَعصِمُهَا إِلَّا ابتِذَارٌ إِلَى مَوتٍ بِإِلجَامِ

يبدأ الشاعر نصّه بأسلوب توكيدٍ يحمل سمة التهكّم، والتحذير في آنٍ معاً (إِنّي ، لَأَخشَى، عَلَيكُم أَن) مؤَكّدٌ بثلاثة مؤكّدات (إنّ، اللام، أن) يعمّق التهكّم، والوَعِيد؛ إذ إنه يطالبهم بالكفّ عن أفعالهم السوداء المظلمة، البغيضة (مِنْ أَجلِ بَغضَائِكُم) التي قد تجرّ إليهم حرباً شعواء دلّ على هولها بالتكرار (يَومٌ كَأَيَّامِ) ، يعمّق الشاعر مدى خطورة الحرب بألفاظٍ ضوئيّةٍ (الشَّمسُ، النُّورُ، نُورٌ) تنزاح دلالياً من حقلها اللغوي الحامل الضوء، و النور، والإشراق، لتكتسب دلالة جديدة وهي دلالة النقيض أي الظلمة (لَا النُّورُ نُورٌ) فضلاً عن وجود ظلمةٍ إدراكيّةٍ تلزم عن تلك الحرب لتكون مكمّلةً للظلمة المعنويّة(لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الإِظلَامُ إِظلَامُ)؛ إذ يختلط الفهم على الأعداء، فيصابون باللّبس، والحيرة، فيصبح الضوء النهاري امتداداً للظلمة، ومكمّلاً لها، ممّا يجعل التعالق كائناً بين الضوء والظلمة _هنا_ فيتساوى الضوء والظلمة في اختران دلالات ضياع القدرة على الإدراك، والتسبّب بالأذى، والظلمة في الفهم، فضلاً عن ظلمة الهزيمة التي تحلّ بالعدوّ لقوّة جيش قوم النابغة، تتعمّق الظلمات أكثر في تصوير الشاعر لمشهد الجيش الجرّار (أو تَزجُرُوا مَكفَهِرَّاً لَا كِفَاء لَهُ كَاللَّيلِ) الذي يبدو لكثرة عدده، وعدّته ليلاً مظلماً، داكناً، ولكنّ أسلحته تبرق، يعمّق هذه الدلالات وصفاً الجيش بقوله: (مُكفَهِرَّاً) ؛ إذ صرّح بوصف مظهر الجيش، ولونه، وحذف اسمه، ممّا يدلّ على رسوخ تلك الصفة فيه، وثباتها " اكفهرّ النجم: بدا وجهه وضؤوه في شدّة ظلمة الليل، وفلان مكفهرّ الوجه: إذا ضرب لونه إلى الغبرة مع الغِلظ"([١٥])تصور هذه اللّفظة لونيّاً مظهر الجيش الذي يستمدّ قوّته من لون الدكنة الدالة على الكثافة، والتداخل، تتقوّى دلالات السواد، والظلمة في المشهد بتكرارصيغة الجمع (أَصرَام) التي تحمل معاني الظلمة، وكثرة العدد "الصرم: القطع، الصارم: السيف القاطع، الصريم: اللّيل المظلم"([١٦])أي ثمّة تكثيفٌ للظلمة التي أخذت معنى القتل، والقطع بفضل اختزانها كمّاً كبيراً من السلاح، والسيوف الباترة القاطعة، تبدو في ظلمة الجيش دلالات ضياءٍ تتضمّنها الدروع (مُستَحقِبِي حَلَقِ المَاذِيِّ) فهي دروع بيض، مضيئة، برّاقة " الماذي من الدروع: البيضاء "([١٧]) يتواءم ضياؤها مع ظلمة الجيش، وسواد لونه في اختزان معاني القدرة، والتمكّن، فضلاً عن حمل الضياء دلالات الحماية، والذود، والحياة، والنصر لقوم الشاعر، والردع لأعدائهم، مثلما دلّت ظلمة الكتائب، كما يتّسم هذا الجيش بشموخ فرسانه (شُمُّ العَرَانِينِ)،

أعزّة كرام، ضرابون للهام: وصفهم بالجراءة والإقدام على الأقران، لا يقطع الخرق إلا طرفه سام: أي ليس بكليل البصر ولا جزوع على السفر ، ولكنه صبور جلد ؛ فطرفه سام مرتفع، والخرق: الأرض الواسعة التي تنخرق فيها الرياح، يهدي كتائب خضراً ليس يعصمها، يعني صاحب اللواء يهدي هذه الكتائب ويسير بها، والخضر: السُّود من كثرة السلاح، ليس يعصمها: لا يعتصمون بهرب ولا هزيمة، لكن بالمبادرة إلى الحرب.([14])

([15]) قاموس الألوان، عبد الحميد إبراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص٢١٩

([16]) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، ص٦٤٣

([17])قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد إبراهيم، ص٢٣٣

وحُسن القيادة، (لَهُم لِوَاءٌ بِكَفَّي مَاجِدٍ بَطَلٍ)، فهو جيش متكامل القدرة، والعتاد، يعزّز الشاعر دلالات عظمته، وظلمته المتضمّنة معاني القوة بقوله: (كَتَائِبَ خُضرَاً) ؛ إذ " يُقال للأسود أخضر، والخضراء من الكتائب التي يعلوها سواد الحديد"([18]) نلحظ إلحاح الشاعر على دلالات السواد في تصوير الجيش، وإبداء كثافته، وعدد فرسانه، وأسلحته، وحمله دلالات الموت، والرعب للأعداء، فيتكامل سواده وظلمته، وظلمة يوم عدوّه عندما يواجهه، فضلاً عن مشاركة هذه الظلمات للضياء في تجلية معاني قدرته، وتمكّنه.

ويمكن التوقّف حيال ضوء الصباح في رسم صور المعارك، والحروب لما فيها من دلالات تنحاز إلى القوّة، والغلبة، والقتل، وهذا ما يجعلها لفظة حيويّة فاعلة وظيفيّاً في رسم لوحات الصراع الإنساني.يصبح ضياء الصباح زمناً للوعيد الإغارة، والموت في مشهدٍ شعريّ لطرفة بن العبد يهدّد فيه الأعداء بالهجوم عليهم، وإفنائهم، يقول:([19])

وَتَصْبَحُكَ الغَلبَاءُ تَغلِبُ غَارَةً هُنَالِك لَا يُنجِيكَ عَرْضٌ مِنَ العَرْضِ

وَيُلبَسُ قَومٌ بِالمُشَقَّرِ وَالصَّفَا شَآبِيبَ مَوتٍ تَسْتَهِلُّ وَلَا تُغضِي

تَمِيلُ عَلَى العَبدِيِّ فِي حَدِّ أَرضِهِ وَكَعبُ بنُ سَهلٍ تَخْتَرِمْهُ عَنِ المحض

تعمّ دلالات ترهيب العدوّ، ووعيدُه بالفناء، والقتل ضوء الصباح في المشهد؛ إذ يكتنه الضوء الصباحيّ أفكار المباغتة، والمفاجأة بالغارة القويّة المهلكة الأعداء "فيقع الغزو في وقت الصباح في الغالب ... فالغارة غزو مفاجئ يفاجئ به العدوّ عدوّه ليأخذه على حين غرّة، ثمّ تتراجع حاملة ما حصلت عليه من غنائم "([20]) ممّا يعني اكتناز الضوء في النصّ معاني،الشرّ والقتل، والغلبة على العدوّ، فضلاً عن معاني البأس، والشجاعة في قوم عمرو بن كلثوم، فيصبح ضياء الصباح ظلمةً، وسواداً معنويّاً للعدوّ يتجلّى بالهزيمة، والغلبة يقوّي الشاعر هذه

الدلالات بالتكرار (الغَلبَاءُ تَغلِبُ) الذي يعمّق أفكار تفوّق قومه على العدوّ، وقدرتهم على الانتصار عليه، وإحلال المصائب به، فلا مفرّ لهم من الردى، يكثّف النفي، والتكرار هذه الدلالة (لَا يُنجِيكَ عَرْضٌ مِنَ العَرْضِ)، فلا ملاذ يقيهم من سطوة قوم الشاعر، ومن المنية التي جسدها بصورة فنّيّة قوامها الحركة، والخيال (وَيُلبَسُ قَومٌ، شَآبِيبَ مَوتٍ) فتتجلّى المنيّة بأرديةٍ تكفرهم حاجبةً عنهم ضياء الحياة، منزلةً ظلمة الهزيمة فيهم، فضلاً عن تجلّي سهام قوم الشاعر، ونبالهم المتساقطة على الأعداء بوابلٍ من الأمطار يستلب حياتهم بصفةٍ مستمرّة يوحي تكرار صيغة المضارع (وَيُلبَسُ، تَسْتَهِلُّ) الدالّة على الاستمرارية بذلك، وبدوام الغارة، والإهلاك، وتجدّدهما حتى النصر وقتل الأعداء ولاسيّما (العَبدِيِّ، وَكَعبُ بنُ سَهلٍ) فتتمزق أجسادهم، يقوّي هذه الدلالة الفعل المضارع (تَخْتَرِمْهُ) الذي يصوّر نفاذ السهام، والنبال في الأجساد وتمزيقهم إيّاها "الأخرم: مثقوب الأذن، انخرم ثقبه: انشق، اخترمهم: اقتطعهم استأصلهم"[21] وبالنظر إلى اللّفظة الضوئيّة (تَصْبَحُكَ) التي تصدّرت المشهد نجد أنّ صور الانقضاض على الأعداء، والتنكيل بهم مرتبطة

([18])المصدر السابق نفسه، ص٦٦ – ٦٧

ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية الخطيب– لطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق – سوريا ، ١٣٩٥ هـ ، ط١، ١٩٧٥ م ، ص١٧٠ تصبحك: تغير عليك صباحاً، الغلباء: العزيزة الممنعة، وسميت تغلب بذلك لعزتها ومنعتها، العرض: الناحية من النواحي، تغضي : تستحي منهم، العبدي : هو عامل الملك الذي حبس طرفة للقتل، أو أنه أراد به، عبد عمرو الذي وشى به إلى عمرو بن هند، كعب بن سهل: لعله ممن حرضوا عمرو بن هند على قتله

([19])

([20])المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي ، نشر : جامعة بغداد ، ط ٢ ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ ، ج٥، ص٣٤٠–٤٠٣

([21]) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري ، ٣١٦

بحدث بدء الهجوم وزمنه، فيكون ضوء الصباح ثنائيّ الدلالة بصفة ضدّيّة؛ فيدلّ على النصر لقوم الشاعر الأبطال، والهزيمة الشنيعة لأعدائهم.

يشتمل ضياء الصباح على دلالات الغلبة، والانتصار لقوم عمرو بن كلثوم على العدوّ فضلاً عن استيعاب الظلمة الدلالات عينها لقومه، وأفكار الهزيمة، والذل للعدوّ في غارةٍ شنّها قومه على العدو يقول:[٢٢]

جَلَبْنَا الخَيلَ مِن كَنَفَي أَرِيكٍ عَوابِسَ يَطَّلِعنَ مِنَ النِّقَابِ
كَأَنَّ إِنَاثَهَا عِقبَانُ دَجْنٍ إذا طُؤْطِئْنَ فِي بَلَدٍ يَبابِ
صَبَحنَاهُنَّ عَن عَرَضٍ تَمِيماً وَأَتلَفَ رَكضُنَا جَمعَ الرِّبَابِ
فَأَفنَينَا جُمُوعَهُمُ بِثَأْجٍ وَكَرَّت بِالغَنَائِمِ وَالنِّهَابِ
فَكَم عَفَّرنَ مِن وَجْهٍ كَرِيمٍ غَدَاةَ لَقِيتُهُم وَالنَّقعُ كابِ

يبيّن النص منذ مطلعه هيئة الخيل المغيرة على الأعداء باستخدام لفظة (عَوابِسَ)، والمضارع المضعّف (يَطَّلِعنَ) الذي يوحي بحيويّة الخيل، ومدى نشاطها فضلاً عن حمل لفظة (عَوابِسَ) أفكار التحفّز والغضب "اليوم العبوس: الشديد، عابس الوجه: غضبان"[٢٣] وهي خيول سريعة يرسم الشاعر صورة بصريّة تبدي سرعتها؛ إذ تظهر

في جريها، واختراقها الظلمة مثل طيور العقاب (كَأَنَّ إِنَاثَهَا عِقبَانُ دَجْنٍ إِذَا طُؤْطِئْنَ) ، تختزن الصورة الفنّيّةً دلالات الظلمة، والسرعة، والغضب والتحفّز للقتال، والهجوم، والإغارة على الأعداء ، فكما ينقضّ العقبان على فرائسهم كذلك الخيول، وفرسانها فالظلمة _هنا_ ظلمة القوّة، والتأهّب للقتال، فضلاً عن كون ضياء الصباح امتداداً لها؛ إذ حدّد زمن الإغارة على الأعداء (صَبَحنَاهُنَّ) أي فترة ضياء الصباح فقد " كان الهجوم في الغارة يحدث عادةً أوّل النهار في الصباح المبكر؛ لأنّ القوم في ذلك الوقت يكونون مستغرقين في النوم ... فتسبّب لهم صدمةً قويّةً تملأ قلوبهم فزعاً، ورعباً" ([٢٤]) وهذا ما جعل ضياء الصباح، وإشراقه ظلمةً معنويّةً على قوم العدوّ فلم يحمل الإشراق، بل حمل الشرّ، والاعتداء، وظلمة الموت، والفناء (فَأَفنَينَا جُمُوعَهُمُ)، وكان ضياءً معنويّاً، و مادّيّاً لقوم الشاعر لانتصارهم على العدوّ، ومباغتتهم إيّاه، ونيلهم الغنائم (وَكَرَّت بِالغَنَائِمِ وَالنِّهَابِ)، فقد انتصر قوم الشاعر، انتصاراً أذلّ العدوّ كنّى عن الإذلال بقوله: (فَكَم عَفَّرنَ مِن وَجْهٍ كَرِيمٍ غَدَاةَ)، استخدم (كم) الخبريّة التكثيريّة، والماضي المضعّف (عَفَّرنَ) اللّذين عمّقا دلالة الإذلال ولا سيّما لأنبل القوم؛ فحمل البياض _هنا_ دلالة الإرضاخ والإهانة، ممّا جعل الضوء والظلمة في المشهد كاشفين معاني التسبّب بالأذيّة للعدوّ، وإذلاله، وحمل أفكار النصر، والظفر لقوم الشاعر.

ديوان عمرو بن كلثوم، د.إميل بديع يعقوب، ص٢٧ وينظر ديوان عمرو بن كلثوم ص٥٦، وص٤٨، وامرئ القيس ص١٣٩ وديوان عبيد ص٥٢، والنابغة ص١٧٤ ، وعنترة ص٣٣٢ والأعشى ٣٣٩ أريك: اسم جبل بالبادية، يطلِعْنَ : يأتين فجأة، النقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الأرض الخشنة، العقبان: جمع العقاب، وهو طائر من الجوارح قوي المخالب، أعقف المنقار حاد البصر، للمذكر والمؤنث، الدجن: الغيم الكثير المظلم طأطأ الفرس: نخزه بفخذيه، وحثه للركض، اليباب: الخالي لا شيء فيه، ثاج: قرية بالبحرين، النهاب: الغنيمة، عفرنَ: أَذلَلْنَ، وعفّره في التراب: مرغه وقلبه فيه، النقع : الغبار، الكابي : الكثيف

([22])

معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، اعتنى به: د.محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠١[23]، ص٧٠٣

([24])شعر الحرب في العصر الجاهلي، د علي الجندي، ص ٨٢– ٨٣

يحفل ضياء السيوف بدلالات الحماية، وتلبية نداء الحليف في مشهدٍ شعريٍّ لعبيد بن الأبرص يبيّن فيه استعداد قومه، وجاهزيّتهم لمساندة الحليف، ونصرته، والذود عنه، يقول:([٢٥])

دَعَا مَعاشِرَ فَاستَكَّت مَسَامِعُهُم يا لَهفَ نَفسِيْ لَو تَدعُو بَنِي أَسَدِ

تَدعو إِذَاً حَامِيَ الكُماةِ لَا كَسِلاً إذا السُّيُوفُ بِأَيدِي القَومِ كَالوَقَدِ

لَو هُم حُماتُكَ بِالمَحمى حَمَوكَ وَلَم تُترَك لِيَومٍ أَقَامَ النَّاسَ فِي كَبَدِ

يبرز الشاعر منذ مطلع النصّ الشعري دلالات تخاذل من استعان بهم حليف قومه مقوّياً ذلك بالفعلين الماضيين المعمّقين تحقّق المعنى (دَعَا ، استَكَّتْ)؛ إذ لم يهبّوا إلى نصرتهم، وإنّما بدوا وكأنّ في آذانهم صمم (استَكَّتْ مَسَامِعُهُم)؛ إذ ثمّة _ هنا _ ظلمةٌ معنويّةٌ تتجلّى بالخذلان، وخيبة أمل الحلفاء؛ لاستعانتهم بمن ليسوا أكْفاء، ولا أعوان على نقيض بني أسد الذين يتحلَون بصفات العون، والنجدة، تبرز هذه المعاني بصورةٍ تقوم على الضياء تبرز توهّج سيوفهم فتغدو (كالوَقَد) في سطوع ضوئها " وقد الشيء: تلألأ، الوقد: اتقاد النار" ([٢٦]) تبدي الصورة تفوّق أبطال قوم عبيد بشجاعتهم، وإقدامهم، وتأهّبهم، وتكتمل صورة القوّة، والتفوّق لهؤلاء الأبطال بصورة السيوف المتوهّجة مثل النّار، يُبنَى هذا التصوير الضوئيّ على الأيدي القابضة عليها بقوّة، وقدرة على القتال، وخفّة الحركة، وسرعتها، فيلوح للبصر مشهد السيوف وكأنّها حريق، تعمّق النار _ هنا _ (إِذا السُّيُوفُ بِأَيدِي القَومِ كَالوَقَدِ) أكثر من دلالة منها: الدلالة على كمّ البطولة، والقوّة في أبطال قومه؛ إذ تشير صورة الوقد إلى انعدام أيّة فرصة للنّجاة من ضربات هؤلاء القاتلة، فكما تُلحق النار الأذى، والاحتراق كذلك سيوف القوم في تسبُّبها بقتل الأعداء، والذود عن الحليف، ممّا يجعل ضوء السيوف دالّاً على البأس الشديد الذي يتّصف به جيش بني أسد، ورامزاً إلى القدرة على إنهاء المعركة لصالح الحليف، وحسمها "فقد ارتبط السيف بالثقافة العربيّة ارتباطاً وثيقاً، وكان رمزاً لها، كما كان رمزاً للحسم"([٢٧])علاوةً على حمله في المشهد دلالات الحماية التي يكثّفها التكرار (حُماتُكَ، بِالمَحمَى، حَمَوكَ) المعمّق معاني التلبية، والنَّجدة المتصفِين بها، كما استخدم أداة الشرط غير الجازمة (لو) وهي حرف امتناع لامتناع، تؤكّد امتناع من استنجد بهم عن الحماية لامتناع اتّصافهم بهذه الصفة أصلاً(لَو هُم حُماتُكَ، حَمَوكَ)، فيتضمّن الشرط _هنا_ دلالة المعاتبة؛ لأنّهم استعانوا بمن ليسوا أهلاً للثقة، والنجدة، ولم يستعينوا ببني أسد الذين يتصفون بهذه الصفات، فضلاً عن اتصافهم بالقوّة، وشدّة البأس التي أظهرتها الصورة الضوئيّة لسيوفهم

الوهّاجة، البرّاقة؛ إذ كان الضوء في المشهد ضوء القدرة على ردع الأعداء، وحماية الحليف بقوّةٍ، وقدرةٍ شديدةٍ، وتضاد مع الظلمة المعنويّة المتجلّية بالخذلان.

يرمز الضياء في وصف عنترة بن شداد سيفه إلى الموت، والقتل، فيبدو السيف البرّاق أداةً للتفوّق، والانتصار على العدوّ، يقول:([٢٨])

([25])ديوان عبيد بن الأبرص، تشارلز لايل،ص٤٧ ،وعمرو بن كلثوم، ص٤١ ، والنابغة ص٤٤ وعنترة ص٢٩٣

([26])معجم متن اللغة، أحمد رضا، مجلد٥، ص٧٩٣

([27]) شعرنا القديم والنقد الجديد ، د.وهب رومية ، مجلة عالم المعرفة ، العدد ٢٠٧ ، الكويت ، آذار مارس ١٩٩٦ ، ص٣٢٩

ديوان عنترة، محمد سعيد مولوي ، طبع : المكتب الإسلامي ، بيروت– لبنان ، دمشق – سوريا ، ط٢، ١٩٨١ ، ص٢٣٤ – صارم:قاطع،

([28]) عقيقة: برق،لا افل : تشقق، فطار: تشقق

وسَيفِي صَارمٌ قَبَضَتْ عليهِ أَشَاجعُ لَا تَرَى فِيها انتشارا
وَسَيفِي كَالعَقِيقَةِ وَهُوَ كِمعِي سِلَاحِي لَا أَفَلَّ وَلَا فُطَارَا

يبدو سيفه حادّاً باتراً عمّق اسم الفاعل (صَارمٌ) هذه الدلالات، تتكامل فاعليّته مع قوّة قبضة الشاعر الصلبة القابضة عليه التي ينتفي عنها الضعف (لَا تَرَى فِيها انتشارا) ممّا يكثّف دلالات شدّة البأس، يحضر الضياء ساطعاً في المشهد بالصورة الفنّيّة التشبيهيّة (وَسَيفِي كَالعَقِيقَةِ وَهُوَ كِمعِي، سِلَاحِي) وهي صورةٌ تشبّه ضياءه بالبرق "عقيقة البرق: ما انعقّ منه وتسرّب في السّحاب، وكلّ انشقاق فهو انعقاق، يقال انعقّت السحابة: إذا تبعّجت بالماء" ([29])ممّا يعني حمل الصورة الفنّيّة الضوئيّة للسيف دلالات القتل، وشقّ الجسد، وإراقة الدماء، فكما يتسبّب البرق، والرعد في إنزال المطر من السحاب، كذلك سيف الشاعر في هراقة الدماء" فإذا نظرت إلى السيف في يد الفارس ألفيت برقاً يتلألأ"([30])حاملاً الموت، والإفناء، والصلابة، والقسوة، والتمام، يقوّي هذه الدلالات صيغة النفي المكرّرة مرّتين التي تنفي عنه أيّة كسور (لَا أَفَلَّ وَلَا فُطَارَا)، وهذه الصلابة توحي بصلابة الشاعر نفسه.

تتحوّل وظيفة السيوف من القتل إلى الضياء، واللّمعان بفضل الوظيفة الفنّيّة الحيويّة للضوء من خلال تشبيه السيوف المضمّخة بالدماء في لمعانها ببياض أسنان ثغر المحبوبة؛ إذ يتمكّن الضوء من إحلال الشعور بالجمال، والحب من خلال الصورة الدمويّة، ممّا يَحرِف معاني الصورة ودِلالاتها إلى الإشراق، والحياة، يقول:([31])

وَلَقَد ذَكَرتُكِ وَالرِّماحُ نَواهِلٌ مِنّي وَبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمِي
فَوَدَدْتُ تَقبِيلَ السُّيوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

يرسم الضياء في المشهد ملامح فنّيّة تنذر بالفناء، والقتل إثر الطعن بالرماح المتسبّب بتقطير الدماء في أجواء احتدام القتال، والطعن، والضرب عبّر عنها بالصورة الفنّيّة التشخيصيّة (والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ) التي تصوّر الرماح بأشخاص يشربون الدماء لكثرة تضرّجهم بها، وسيلانها عليهم مشيرةً إلى معاني الفَنَاء، وظلمة الموت "فخيال عنترة يعتمد في وصفه على التشبيه الحسي، وهو يبثّ أيضاً الحياة في وصفه وقصصه، ومن أساليبه في ذلك التشخيص" ([32]) تحضر المحبوبة بجمالها، وإشراقها في سياق تشبيه لمعان السيوف بإشراق ثغرها الوضّاء

فيمكّن الضوء من إزاحة ظلمة الإحساس بالفناء في صورةٍ مشرقةٍ تقود بصر الشاعر، وبصيرته صوب الجمال، والحياة، فتتحوّل الصورة بفاعليّة الضوء من الموت إلى السعادة في صورة الثغر اللّامع الباسم، وتكمن أهمّيّة الدور الوظيفيّ للضوء _هنا_ من خلال خلق عنترة جوّاً من الحياة التي طغت على فكرة الموت، ممّا يعني وجود تواؤمٍ

بين بياض السيوف، وضيائها، وظلمة الموت المُنذَرِ به، وهذا يجعل _بدوره_ التعالق قائماً بين الضوء والظلمة في التسبُّب باقتراب الأجل، وفي تلك اللحظة تمنّى الشاعر تقبيل السيوف (فَوَدَدْتُ تَقبِيلَ السُّيوفِ) لأن ضياءها، ولمعانها يمنحه نسغ الحياة، فتكون الدماء _هنا_ إشارةً إلى حياةٍ جديدةٍ،" وهي صورة من امتزاج الحب بالحماسة،

([29]) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري ص٧٩٤
([30]) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّيّة، د.عبد الإله الصائغ، ص١١٦
([31])شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، ط١ ، ١٩٩٢.ص ١٩١
([32]) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري،دط، دت، ص١٧٩

واختلاط نار الحرب بنسيم الحب" ([٣٣]) ثمّة تكثيف لدلالات الضياء، والبريق، واللّمعان التي تتّصف به السيوف، وثغر المحبوبة دلّ عليه الترادف بين الفعل الماضي المؤكّد اللّمعان (لَمَعَتْ)،و اسم الفاعل (بَارِقِ) المعزّز الضياء والبريق، ففي لحظة اقتراب ظلمة الموت، وسواده تحضر ذكريات المحبوبة المضيئة الثغر، ممّا يجعل الضوء والظلمة في هذا البيت متضادّيْن؛ إذ يتضاد ضياء ثغر المحبوبة، وبياضه مع ظلمة الموت، وسواده، فقد أحدثت ذكرى المحبوبة مفارقةً، وتحوّلاً دلاليّاً للضوء، والبياض، واللمعان فانتقل معنى الضوء من الموت الحامل دلالة الظلمة والسواد (وَبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمِي)، إلى ضياء الحياة، وبياضها، وسعادتها (لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ).

يؤدّي الضوء والظلمة دوراً فعّالاً في مشاهد الرماح؛ إذ ترسم أسنّةً برّاقةً، وهّاجة يحمل بريقها أفكار الشحذ، والحدّة، والنفاذ في الأجساد، والإنذار بالموت، والفناء.

يحمل الضوء في مشهدٍ شعريٍّ لامرئ القيس دلالات القوّة، والتأهّب لقتال العدوّ، ومجابهته بكلّ عزيمةٍ، وشدّة بأسٍ؛ إذ يختزن ضياء رمحه أفكار التحدّي، والصمود، يقول:([٣٤])

فَإِن تُوعَداني بالقِتَالِ فَإِنَّمَا جَمَعْتُ سِلَاحِي رَهْبَةَ الحَدَثَانِ

جَمَعْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَسْتَعِنْ بِدُخَانِ

وَمَسْفُوحَةً فَضفَاضةً تُبعِيَّةً وأبيضَ قَضَّابَاً أَحَدَّ كَفَانِي

ترسم الأضواء في النصّ صوراً تبرز مدى الشجاعة، والقدرة، يبدأ النصّ بجملة شرطيّة تبدي تهديد العدوّ له (فَإِن تُوعَداني بالقِتَالِ) يدلّ في جوابها على أنّه متأهّبٌ للقتال بكلّ قوّة (فَإِنَّمَا جَمَعْتُ سِلَاحِي) يعمّق هذا الجواب مدى استعداده، يحضر الضوء في أثناء ذكره تفاصيل عتاده الحربي؛ إذ يبدو رمحه في ضيائه كاللّهب (جَمَعْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ) تظهر الصورة الفنّيّة مدى ضياء أسنّة الرماح، وبريقها، فيكتسب الضوء _هنا_ دلالة العزيمة، والتمكّن من محاربة الأعداء بكلّ عزم، نلحظ اعتماد الشاعر التكرار في قوله (جَمَعْتُ)، والترادف (سَنَا، لَهَبٍ) الذي يقوّي دلالات الاستعداد، والتأهّب، ورباطة الجأش، فضلاً عن تعزيز الضياء معاني التسبّب بالأذيّة للأعداء، ولا سيّما أنّه ذكر اللّهب"اللّهب اشتعال النار إذا خلص من الدخان"([٣٥]) فتغدو الرماح في ضيائها ناراً منقطعة الدخان تملك القدرة في لهيبها على إلحاق الضرار بالأعداء، فلا دخان أسود مظلم يعكّر الضياء، ويخفّف سطوعه (لَمْ يَسْتَعِنْ بِدُخَانِ) ممّا ينفي الظلمة الماديّة عن المشهد، يذكر الشاعر المزيد من العتاد الحربي مقوّياً دلالات السطوة والضياء، ذاكراً وجود الدرع القوية (وَمَسْفُوحَةً فَضفَاضةً)، والسيف القاطع (وأبيضَ قَضَّابَاً) ؛ ؛إذ تزداد دلالات الضياء الدال على معاني العزيمة، في وصف السيف بأنّه أبيض، الذي يعد ضياؤه، وبريقه امتداداً لضياء الرماح القويّة، الحادّة، البرّاقة في اختزان أفكار الاستطاعة على التصدّي للعدوّ، فضلاً عن التمكّن من قتاله، و التسبّب بالأذى له، فكما تتسبّب النار بالأذيّة تتسبّب الأسلحة بالأضرار للأعداء.

([33]) البطولة في الشعر الجاهلي ، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤، ٢٧

ديوان امرئ القيس، محمد أبو الفضل إبراهيم،ص٤٠٠ ،والنابغة ص١٣٤، وعنترة ص٢٣٥ولبيد ص٢٠٧ الرديني : الرمح المنسوب

([34])في عمله إلى ردينة؛ قرية تعمل فيها الرماح بالبحرين، المسفوحة: الدرع الواسعة، والفضفاضة : الطويلة، والقضاب: السيف القاطع

([35]) قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد إبراهيم – ص٢٢٩

يعلن ضياء أسنّة رماح المقاتلين تحقّق النصر لعنترة بن شداد، وقومه بني عبس في المشهد الآتي الذي يرسم تفوّقهم في إحدى المعارك، وهروب أعدائهم، وتشتّتهم، يقول:([٣٦])

وَذُرِنَا كَمَا دَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى وَدَارَتْ عَلَى هَامِ الرِّجَالِ الصَّفَائِحُ
بِهَاجِرَةٍ حَتَّى تَغَيَّبَ نُورُهَا وَأَقْبَلَ لَيلٌ يَقْبِضُ الطَّرْفَ سَائِحُ
تَدَاعَى بَنُو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ حُسَامٍ يُزِيلُ الهَامَ والصَّفُّ جَانِحُ
وَكُلُّ رُدَينِيٍّ كَأَنَّ سِنانَهُ شِهَابُ بَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَاضِحُ
فَخَلَّوْا لَنَا عُوذَ النِّساءِ وَجَنَّبُوا عَبَادِيدَ مِنهَا مُستَقِيمٌ وَجَامِحُ
وَكُلَّ كَعَابٍ خَدْلَةِ السَّاقِ فَخْمَةٍ لَهَا مَنصِبٌ فِي آلِ ضَبَّةَ طَامِحُ
تَرَكنَا ضِرَارَاً بَيْنَ عَانٍ مُكَبَّلٍ وَبَيْنَ قَتِيلٍ غَابَ عَنْهُ النَّوَائِحُ

يصوّر الشاعر فِعالهم الحربيّة في الأعداء، وتسبّبهم في إلحاق الأضرار، والقتل بهم في فترة ضياء الهاجرة الممتدّة حتّى غياب الشمس (بِهَاجِرَةٍ حَتَّى تَغَيَّبَ نُورُهَا) مستخدماً التشبيه التمثيلي (وَذُرِنَا كَمَا دَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى) في تصوير ضربهم إيّاهم مشبّهاً ذلك بالرحى التي تطحن الحبوب "فالرحى يوضع فيها الحبّ فتطحنه طحناً كذلك الحرب تجمع الناس ثم تبيدهم مهلكةً إيّاهم كأنّها تجعلهم كالطحين في التكسير والتفتيت" ([٣٧]) فيبدو الضوء _هنا_ رمزاً للإهلاك، والأذيّة لما يحمله من شرٍّ، واعتداء يسفر عن التأذّي، والقتل؛ إذا استبسل بنو عبس في المعركة مستخدمين أقوى السيوف (بِكُلِّ مُهَنَّدٍ حُسَامٍ) في هذا الصراع، فضلاً عن الرماح القوية التي تلتمع أسنّتها(وَكُلُّ رُدَينِيٍّ كَأَنَّ سِنانَهُ شِهَابُ) فسنانها مضيئة برّاقة "استحسن الشعراء من أسنّة الرماح ما كان صافياً، لامعاً حادّاً، ماضياً، مصقولاً" ([٣٨]) والضوء _هنا_ يعمّق أفكار الموت والنفاذ في الأجساد لارتباطه بالحدّة؛ أي إنّه

يحمل دلالة ظلمة الموت، تكثّف الصورة الفنّيّة التي شبّهت ضياءها في الظلمة بضياء الشهاب، وهي صورة بصريّة حركيّة تُظهر انطلاق الرماح، وميلانها في الجو، وبريق رؤوسها، مشبهةً هذا المظهر بمظهر الشهاب الذي يندفع

مائلاً في السماء برأس وهّاج، فيكتسب ضياء الرماح معنى الاحتراق، والاتّقاد، فكما تحرق النار، وتفني كذلك الرماح، يصوّر الشاعر مظهر قوم العدو المهزومين في صورةٍ حركيّةٍ أخرى تبدي اضطرابهم ، وتشتّتهم (مِنهَا مُستَقِيمٌ وَجَامِحُ) فقد دفعوا إلى الهرب تاركين خلفهم الغنائم، والفتيات(وَكُلَّ كَعَابٍ) فغدوا بين قتيلٍ، وأسيرٍ (تَرَكنَا ضِرَارَاً بَيْنَ عَانٍ مُكَبَّلٍ) ممّا يؤكّد هزيمتهم، وانتصار قوم الشاعر، فغدا الضوء في النصّ مكافئاً للظلمة في التسبّب بالقتل للأعداء، والنصر لبني عبس.

ديوان عنترة، محمد سعيد مولوي، ص٣٠١ ص٣٠٢ قطب الرحى: ما تدور عليه والصفائح ما عرض من السيوف، بهاجرة: أي قاتلناهم نصف النهار تداعى بنو عبس: دعا بعضهم بعضاً إلى القتال، الحسام: السيف القاطع الهام: الرؤوس، الجانح: المائل، والردينى: رمح ينسب إلى ردينة وهي امرأة كانت تبيع القنا، جيبوا: هربوا، العباديد: المتفوقون، الجامح: الذاهب على وجهه ، خدلة : غليظة، الكعاب: التي كعب ثديها فصار كالكعب، والطامح: المرتفع، تركنا ضراراً: يعني ضرار بن عمرو الضبي، العاني: الأسير ، الكوالح: التي كشرت عن)أنيابها، والمسائح: ذوائب مقدم الرأس

([37]) شعر الحرب في العصر الجاهلي، دعلي الجندي – ص ٧٥

([38]) المصدر السابق نفسه – ص ١٣٤

ترتسم في المشاهد الحربيّة المصوّرة العتاد القتالي من قوانسَ، ودروع صور ضوئيّة، ومظلمة تؤدّي دوراً فاعلاً فيها كاشفةً دلالات الحماية، والقوّة، والصدّ، في صور الدروع، والقوانس في هذه المشاهد.

تترادف ألفاظ الضياء في نصّ شعريّ لعبيد بن الأبرص مكثّفةً أفكار القوّة، والقدرة التي يتحلّى بها جيش قومه؛ إذ تبدو الصور الضوئيّة في القوانس عنصراً فنّيّاً يعمّق صفات الشجاعة، والبأس بوصفها ملمحاً من ملامح حضور هؤلاء الفرسان في المعركة، يقول:([٣٩])

بَلْ لا مَحَالَةَ مِنْ لِقَاءِ فَوَارِسٍ كَرَمٍ مَتى يُدْعُوا لِرَوْعٍ يَرْكَبُوا
شُمٍّ كَأَنَّ سَنَا القَوَانِسِ فَوْقَهُمْ نَارٌ عَلَى شَرَفِ اليَفَاعِ تَلَهَّبُ
تَمْشِي بِهِمْ أُدْمٌ تَئِطُّ نُسُوعُهَا خُوصٌ كَمَا يَمْشِي الهِجَانُ الزَّبْرَبُ
وهُمُ قَدِ اتَّخَذُوا الحديد حقائباً وخلالَهُمْ أَدْمُ الْمَرَاكِلِ تُجْنَبُ
وَهُمُ قَدِ اتَّخَذُوا الحَدِيدَ حَقَائِبَاً وَخِلَالَهُمْ أُدْمُ الْمَرَاكِلِ تُجْنَبُ
وَلَقَدْ شَبَبْنَا بِالجِفَارِ لِدَارِمٍ نَارَاً بِهَا طَيْرُ الأَشَائِمِ يَنْعَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ تَمِيمٍ أَنَّهُمْ ذَئِرُوا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضَّبُوا
رَغْمٌ لِأَنفِ أَبِيكَ عِنْدِي ضَائِعٌ إِنِّي يَهُونُ عَلَيَّ أَنْ لَا يُعْتَبُوا
وَغَدَاةَ صَبَّحْنَ الجِفَارَ عَوابِساً يَهْدِي أَوَائِلَهُنَّ شُعْثٌ شُزَّبُ
لَمَّا رَأَونَا وَالمَغَاوِلُ وَسْطَهُمْ وَالخَيْلُ تَبْدُو تَارَةً وتَغَيَّبُ
وَلَّوْا وَهُنَّ يَجُلْنَ فِي آثَارِهِمْ شَلَلَاً وَبَالَطنَاهُمُ فَتَكَبْكَبُوا

تبدو صورة الفرسان في النص وهّاجةً بالإشراق، والضياء اللذين يبرزان مدى قوتهم وتأهّبم لخوض المعارك، يقوّي الشاعر هذه الدلالة بأسلوب الشرط (مَتى يُدْعُوا لِرَوْعٍ يَرْكَبُوا) المتضمّن تكراراً لصيغة المضارع (يُدْعُوا، يَرْكَبُوا) الدال على استمراريّة تأهّبهم، وتحفّزهم للقتال، تبرق خوذ أولئك الفرسان مسلّطةً الضوء على شموخهم، وأنفتهم، وقوّتهم. نلحظ تراكماً لدلالات الضياء في الصورة البديعية (كَأَنَّ سَنَا القَوَانِسِ، نَارٌ تَلَهَّبُ) يقوّي دلالات السمو، والشموخ في صور رؤوسهم الشمّ، وعليها القوانس المضيئة كالنار، "فقد جعل عبيد بن الأبرص لسنا القوانس لهباً، وَجَمعُهُ بين السنا، واللّهب يوحي بكمّيّة ضوء كبيرة تطلّ من اللّوحة الضوئيّة"([٤٠]) فضلاً عن اختزان تلك اللوحة دلالات السمو، والرفعة المقترنين بالانتصار؛ إذ ذكر ثلاثة ألفاظ ضوئيّة في البيت نفسه (سَنَا، نَارٌ، تَلَهَّبُ) تعلي أفكار الضياء الحامل معاني الرِّفعة، والقوّة، والإقدام، كما يوحي المضارع المضعّف (تَلَهَّبُ) باستمرار فاعليّة الفعل، وشدّته؛ أي شدّة سطوة أولئك

ديوان عبيد بن الأبرص، تارلز لايل، ص١٢– ص ١٤ وينظر الأعشى، د.محمد حسين، ص٢٩٥ قوله سنا القوانس، يعني قوانس البيض وهي أوساطها في أعلاها اليفاع:ما ارتفع من الأرض، أدم : بيض، تئط: تصيح، خوص: غائرة العيون، الهجان: الإبل البيض، الربرب: جماعة البقر ،(شبهها بالبقر لبياضها)، الحديد: الدروع، أدم المراكل : يقول: قد ابيض موضع عقب الفارس من الفرس مما يركله برجله، شببنا : أوقدنا، الجفار: ماء لبني تميم تدعيه بنو ضبة، دارم: من بني تميم، طير الأشائم : الغربان، النعيب : صوت الغراب، شعث: يريد الخيل، شزب:ضمر، المغاول: واحدها مغول وهو الذي يكون من السوط ،بالطناهم: جالدناهم، تكبكبوا: اجتمعوا

([39])

([40]) ظاهرة الضوء جمالياً في الشعر الجاهلي ، د مريم البغدادي ، العدد التاسع ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية محرم ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣، ص٤٢٩

الفرسان التي تغدو ناراً ملتهبة تتّقد مكتنفةً دلالات الحرق، وإلحاق الأذى بالعدوّ يرفد الشاعر المشهد بمزيدٍ من الألفاظ الضوئيّة في وصفه خيلهم بأنّها بِيض(أُدْمٌ، كَمَا يَمْشِي الهِجَانُ

الرَّبْرَبُ)؛ إذ تبدو بيضاء كالإبل وهذا البياض يتضافر مع الضوء لإخراج صورة من النقاء والإشراق، ويصف الخيل بأنّها تمرّست في المعارك باستخدامه الكناية (أُدْمُ الْمَرَاكِلِ) مكرّراً لفظة (أُدْمٌ)"أديم النهار بياضه، وهو البياض الواضح " ([41]) ممّا يوحي بجلاء قدرتها الحربيّة، وكثرة استخدامها فغدت مواضع الأقدام بيضاء اللون، يسلط الضوء على فاعليّتها، ويتحدّث عن انتصارهم في يوم الجفار بصورةٍ ضوئيّةٍ قِوامها نار تتلظّى (وَلَقَدْ شَبَبْنَا بِالجِفَارِ لِدَارِمٍ نَارَاً) ممّا يدلّ على اشتداد الحرب، ويحمل الضوء في هذه الصورة دلالات العزم، واحتدام القتال، تقوّيها المترادفات (شَبَبْنَا، نَارَاً) الدالّة على مدى قسوة الحرب الحاملة الأذى، والضرر، كنّى عن هذه الدلالات بذكره الغراب الأسود المظلم (بِهَا طَيْرُ الأَشَائِمِ يَنْعَبُ) الدال على معاني الشؤم فقد "برز التشاؤم كأكبر الدلالات في فضاء الغراب إلى درجة الرعب من هذا الكائن الأسود، وأنبائه عن البين، والخراب، والموت "([42]) ممّا يجعل ظلمة الغراب، وسواده نظراً لضياء النيران الحربية في التسبب بالخطر، و الإنذار بالموت، والشؤم، فيتشارك الضوء والظلمة في النصّ في حمل الموت للعدو ، فضلاً عن كون الضياء الصباحي امتداداً لضياء نيران الحرب، في حمل معاني الردى، والحتف ، والشر للأعداء (وَغَدَاةَ صَبَّحْنَ الجِفَارَ عَوابِسَاً)؛إذ فرّوا هاربين من عظمة قوة الجيش (وَلَّوْا وَهُنَّ يَجُلْنَ فِي آثَارِهِمْ شَلَلَاً) فقد حمل الضياء الصباحي معاني النصر والظفر لقوم الشاعر، وظلمة الهزيمة للأعداء، وهذا ما يجعل الضياء في النص حاملاً القوة، والرفعة، والإباء، والقدرة؛ لتكامل الألفاظ الضوئية في إظهار تلك المعاني المشرقة بالسطوة والرفعة لقوم الشاعر، والمختزنة في طياتها الأذى، وظلمات الهزيمة، والموت، وإفناء للأعداء ، فبدا ضياء الأسلحة ناراً ملتهبة تختزن الحرق، الذي يلزم عنه السواد، والظلمة، والهزيمة للمحترق.

يكتنه بياض الدرع، وضياؤها أفكار الحماية، والذود عن نفس صاحبها في نص شعري لزهير بن أبي سلمى يقول:([43])

إِذَا يُلَاقِي نَجدَةً مَعلُومَةً يَصلَى الكُمَاةُ بِحَرِّهَا لَم يَبلُدِ
لَمْ يَلقَهَا إِلَّا بِشَكَّةِ حَازِمٍ يَخشَى الحَوَادِثَ عَازِمٍ مُستَعْدِدِ
وَمُفَاضَةٍ كَالنِّهيِ تَسُجُهُ الصَّبَا بَيضَاءَ كَفَّتَ فَضْلَهَا بِمُهَنَّدِ

يرسم الشاعر صورةً لها تقوم على الضياء الحامل الحرق، والقتل (يَصلَى الكُمَاةُ بِحَرِّهَا) إذ يتحلّى من يصفه الشاعر بسمات الإقدام عليها بشجاعة، وبسالة على الرغم من احتدامها، فيبدو نشيطاً مقبلاً على خوضها دون فتور يقوّي ذلك نفي سمات الكسل عنه (لَم يَبلُدِ)، فهو يلاقي الأعداء بطعنات سيفه القاطع الذي يبدو رمزاً للحسم يقوي ذلك وصفه باسم الفاعل (حَازِمٍ)، تتقوّى معاني الضياء في المشهد في وصف درعه الصقيلة المضيئة البرّاقة في صورةٍ جماليّةٍ تشبّه بريقها بالتماع الغدير (وَمُفَاضَةٍ كَالنِّهيِ) تكشف هذه الصورة الفنّيّة عن أفكار الصد، والصلابة، والمنعة

[41] قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد إبراهيم، ص١١

[42] الغراب في الشعر الجاهلي الرؤية والتشكيل، د. أحمد بن عيسى الهلال الهلالي، د ط، د.تا – ص ١٥٨

ديوان زهير بن ابي سلمى، ص٢٣٤ وينظر الأعشى، د.محمد حسين، ص٦١ النجدة: الشدة في الحرب، والمعلومة: المشهورة بين الناس، لشدتها وعظمتها، الكماة: جمع كمي ، وهو الفارس الشديد، ولم يبلد: لم يضعف، الشكة: السلاح التام، المفاضة: الدرع الواسعة الفضفاضة،

[43] والنهي: الغدير، الصبا : ريح تأتي من المشرق والمهند: سيف صنع في الهند

وبالتالي القدرة على المجابهة، والمواجهة، وردع الأخطار، والذود عن الحياة"شبّهت الدرع بالماء، والنهى، والغدير في الصفاء، وفي التدرّج، والاطّراد؛ وذلك لأنّه عندما تضرب الرياح سطح الماء يتدرّج، وتطّرد أمواجه، فترى له طرائق، وصفاء شُبّه بهما طرائق الدرع، وصفاؤه"([44])تتعالى دلالات بريقها في وصف لونها بالصفة المشبهة (بَيضَاءَ) فتتكامل مع السيف(كَفَّتَ فَضْلَها بِمُهَنَّدِ) في رمزيّة حماية الحياة؛ والذود عن النفس فيغدو ضياؤها، وبريقها مجابهاً ضياء نار الحرب، رادعاً الأخطار، والشرور، محافظاً على حياة صاحبها حافظاً جسده من طعنات الأعداء، ومن ظلمة الموت.

خاتمة ونتائج:

يمكن أن نجمل نتائج البحث بما يأتي:

توصّل البحث إلى أن فنّيّة عدد من مشاهد الصراع الحربي استعانت بعنصريّ الضوء والظلمة للتعبير عن رؤى الشعراء، ومواقفهم إزاء الحرب وحقيقتها المهلكة المفنية في نصوص شعريّةٍ مظهرةً البطولة والتضحيات فيها فضلاً عن إبدائها أحاسيس الكره لها، والدعوة إلى التنفير منها، والتحذير من الانجرار إليها في نصوصٍ أُخرٍ.

كشف البحث عن ارتباط عنصريّ الضوء والظلمة بالإفصاح عن مكنونات الذات الشاعرة حيال الحرب من خلال تحديد زمن المعارك؛ إذ شكّلت زمنيّات المعارك الأبعاد الشعوريّة، وأوضحت ملامحها، فكان ذكر زمن الصباح إشارةً إلى أفكار المباغتة، وإماته الأعداء وتجسيداً لمشاعر رهبتهم ، فجاء زمن الصباح مقروناً بالنصر للمهاجمين ، وبالفخر بهذا النصر المهلك الأعداء، فضلاً عن حمله أفكار الوعيد والتهديد.

بيّن البحث أنّ الضوء والظلمة عنصران فنّيّان حيويّان استند إليهما الشاعر للكشف عن تأثيرهما في الصراع الحربي ، وذلك بما ارتبط بهما من أفكار، فتجلّت دلالات إخافة الأعداء، وترهيبهم في الصور المظلمة، المعتمة التي صوّرت الجيوش الضخمة.

أبدى ضياء النيران أفكار القتل، واالحرق، والإيلام، كاشفاً معاني بطولة المنتصرين وفوزهم على خلاف المنهزمين الذين اصطلوا بنار الحرب، فحمل الضوء ظلمة الهزيمة إليهم.

حمل الضوء والظلمة في صور الأسلحة أفكار القدرة على قتل الأعداء، وإحلال الموت، الهزائم فيهم وأشار إلى شدّة البأس لمن انتصر ، والهزيمة والردع للمنهزمين.

أدّى الضوء والظلمة دوراً وظيفيّاً فاعلاً في تصوير السيوف؛ إذ أوصلت فكرة القتل، والقدرة على الانتصار، وإلحاق الضرر بالآخر، فضلاً عن حملها دلالة الحب، والموت معاً عندما تذكّر ابتسامة محبوبته عند التماع سيوف القتل التي حاكى التماعها بريق ثغرها.

كوّنت صورة الضوء في المستوى التصويري الفنّي مكوّنات فنّيّة منحتها القدرة على إبداء الدلالات، والأفكار المسندة إليها فكانت صورة النار غالبةً على الظهور الضوئيّ، وإشراق الصباح، وانعكاس البريق، وشكّلت صورة الظلمة في مشاهد الصراع الحربي في صورة اللّيل التعبير عن كثافة الجيوش، والكتائب، وكثرة عددها بصفة خاصّة.

([44])شعر الحرب، د.علي الجندي، ص١٥٨

المصادر والمراجع:

البطولة في الشعر العربي ، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤ –

-*تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري*، د.محمد تامر– أنس الشافي ، دار الحديث– القاهرة، ٢٠٠٩، د.ط

-*تاريخ الأدب العربي* ، حنا الفاخوري ، دط ، د تا

-*ثنائية النور والظلام في ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري* ، محمد رجب عبد الحليم المنشاوي ، حوليات كلية آداب جامعة عين شمس ، مصر ، عدد ٢ – (مارس)٢٠٢١

-*جمالية النار بين البنى المثيولوجيّة والقيم الإنسانية في الشعر العربي القديم*، أحمد الخليل، د.ت، دط

الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ،مكتبة نعضة مصر ومطبعتها، ط٢، ١٩٥٢–

-*الخطاب الإبداعي الجاهلي* ، د.عبد الإله الصائغ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١،١٩٩٧

-*ديوان الأعشى الكبير* ، تحقيق د.محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ،ط ٧ ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م–

-*ديوان الحارث بن حلزة اليشكري*، تح: دإميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ١٤١١ هـ – ١٩٩١

-*ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق درية الخطيب– ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية،سوريا – ١٩٧٥

ديوان عبيد بن الأبرص ، تحقيق تشارلز ليال ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩١٣ م –

-*ديوان عنترة بن شداد* ، تحقيق : محمد سعيد مولوي ، طبع : المكتب الإسلامي، – سوريا ،ط٢ ، ١٩٨١ م

-*ديوان عمرو بن كلثوم*، حققه: د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ،ط١ ، ١٩٩١ م

ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٠ م –

-*شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي*، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان،ط١ ، ١٩٩٢

-*شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حققه وقدم له* : د. إحسان عباس ،ط٢ ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤ م

-*شعرنا القديم والنقد الجديد* ، د.وهب رومية ، مجلة عالم المعرفة ، العدد ٢٠٧ ، الكويت ، آذار مارس ١٩٩٦ م

-*الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه*، د يحيى الجبوري،دتح، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط٥، ١٩٨٦

-*شعر الحرب في العصر الجاهلي*، د.علي الجندي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت– لبنان، ط٣،١٩٦٦

-شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق: دفخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة،لبنان ،ط٣ ، ١٩٨٠ م

-*صورة السلاح في ديوان أوس بن حجر*،أ.د مصطفى حداد، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الخامس عشر، خريف٢٠١٣م

الضوء واللون ، بحث علمي وجمالي ، إعداد فارس متري ظاهر ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، الطبعة ١ ، –

-*ظاهرة الضوء جمالياً في الشعر الجاهلي* ، د مريم البغدادي ، العدد التاسع ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية محرم ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م

-*الغراب في الشعر الجاهلي الرؤية والتشكيل*، د. أحمد بن عيسى الهلال الهلالي، د،تح د ط، د.تا

قاموس الألوان عند العرب ،أ.د عبد الحميد إبراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٩ م-

معجم متن اللَغة، الشّيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ١٩٥٩م-

-معجم *مقاييس اللّغة*، ابن فارس، اعتنى به: د.محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠١م

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، نشر : جامعة بغداد ، الطبعة ٢ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ -